

قيود الحريات في أوقات الحرب

بقلم الدكتور محمود عزمى بك

كانت الحرب فيما مضى تدور بين الجيوش وحدها ، فأصبحت تدور اليوم بين جميع أفراد الأمم .

والحرب قيود والتزامات . فهذه الحريات العريضة الواسعة النطاق التي يعرفها الأفراد في وقت السلم عادة ويتشبهون بها ، تنعدم أو تكاد تنعدم في أوقات الحرب . ذلك أن هناك غرضاً في الأثق يعدو حريات الفرد . بل إنه إذا كان الهدف الأسمى للجمعات الديمقراطية هو إسعاد الفرد وتوفير أسباب العيش الرغد له والراحة بصنوفها ، فإن هذا الغرض يقضى في زمن الحرب ، ويحل محله هدف أبعد منه ، ينسى فيه الفرد وينسى إسعاده ورغده وراحته ، لأن الدولة كلها تكون في حاجة الى الجهود التي كانت تبذل من أجل الأفراد . وما دامت الدولة ، وهي التي توفر حريات الأفراد وتمحيها وتضعفها وتدعمها بسلطانها ، قد تعرضت سلامتها هي نفسها للخطر ، فإن الحريات كلها تصبح في الميزان ، وليس غير الدولة كافلة لها جميعاً .

الحرب ليست إثناءة في تاريخ الأمم وإنما الحرب تاريخ مستقل بذاته وبمكوناته . وهو إن يكن يتصل بما سبقه ، إلا أنه يستقل بمعالمه وسماته الأصلية فيه حتى ليكاد يقطع هذه الصلة بالماضى . وأظهر معالم الحرب هي قيود الحرب . ولكنها ليست هاهنا ككل القيود . فالقيود غل مكروه ، ولكنه عند ما يفرض من أجل الوطن شرف أيسر ما فيه أنه قيد .

إن الحياة رخيصة لا قيمة لها إلا أن يكون لها سبب وجود ، وهذا السبب في وقت السلام هو حرية الفرد ، وهو في وقت الحرب سلامة الوطن ، وأعظم بسلامة الوطن من سبب ، وأهون بما تقتضيه من قيد !!

وفي تلك البلاد المحاربة في هذه المرة ، كما في كل مرة سبقتها ، فهم الناس وعرفوا أن الحرب سلسلة من القيود متلاحقة الحلقات . ولذلك فقد قبلوا ما تأتي به بنفس راضية ، لأنهم يعلمون أن هذه الرخص والحريات الفردية هيبة ، بل تافهة إلى جانب رخصة الوطن الكبرى وبقائه في الوجود عزيزاً كريماً ، وإلى جانب حريته التي تمنح الحريات جميعاً .

ألم نر إلى إنجلترا كيف خولت للدولة - في جلسة برلمانية لم تدم أكثر من ساعتين اثنتين - أن تستولى على ما تضرها واجبات الدفاع الى الاستيلاء عليه من أملاك الأفراد أو أملاك

الشركات والمؤسسات التي يكونونها . ولم يرتفع مع ذلك صوت واحد للاحتجاج على هذا الإجراء الخطير الشأن في النظام الاجتماعي له ؟

ألم نرالى قيود هذه الحرب في البلاد التي اصطلت بنيرانها كيف كبلت كل التصرفات وحدت من كل الحريات وتعلقت ثقيلة بأقدام الأفراد أينما ساروا في مضارب المجتمع ؟ أسمعنا صوتا ارتفع يقول في إنجلترا مثلا إن حظ الأفراد من أنصبة الطعام التي قزرتها الدولة لا يرضى ولا يكفى ؟

أسمعنا في بلد كألمانيا - وقد أصبح الحرمان هناك قاعدة من قواعد الحياة اليومية - أن الناس لا يدركون الدوافع إلى إقلال أنصبة الطعام عندما رأت الدولة أنها في حاجة إلى ذلك لتطم من تظلمهم بحمايتهم ؟ ألم نرالى العمال في إنجلترا ، وإنجلترا هي من نعلم حرصا على المنهات الديمقراطية جميعا ، وقد ارتضوا إلغاء عطلتهم الأسبوعية مرحبين بهذا الإلغاء من أجل بلادهم ، وقبلوا أن يزيدوا ساعات العمل إلى أضعافها من أجل بلادهم ، واستيسرت للسيدات عندهم أن يتزلن عن كل عزيز على نفوسهن ، وأن يهبطن إلى الحقل وإلى المصنع وإلى الميدان ؟ كل ذلك لأن البلاد في حاجة إلى جهود أبنائها ، ولأن الناس في تلك البلاد كلها يعرفون أن سلامة بلادهم تتطلب جميع أنواع التضحيات من أفرادها .

وإذا كانت الحرب قد افتضت الناس في الماضي أن يرتضوا القيود راغبين ، فإنها اليوم تفرض عليهم قيودا أثقل ولا بد أن يرتضوها راغبين كذلك . إن الأمم هي التي تحارب الآن ، ولم يعد ميدان القتال هو ميدان القتال ، إنما أضحى كل شبر في أرض الوطن ميدان قتال ، وأضحى الجنود هم كل أفراد الأمة . هكذا رأينا وسمعنا وما زلنا نرى ونسمع .

أما في مصر فإن الحرب لم يصل لحيبها إلينا بعد في كل تاريخنا الحديث ، ولم تكون فكرة صحيحة عن واجباتها وقيودها وأحماشا وثقيلة ما هي هذه الواجبات والقيود والأحمال ! أننا لا نعرف من الحرب في هذا الجيل إلا ما بقي في نفوس الأكرين منا من ذكريات الحرب الماضية . ولم تكن نحارب في المرة السابقة ولكننا كنا نتاجر . فصورة الحرب كما بقيت في نفوسنا هي مال ورخاء وحياة ، ولكن الحرب في هذه المرة - إذا حدث أن أقبلت تزورنا - لن تكون كذلك . إنها ستكون إذن تضحيات والتزامات وقيودا لم نعرف عنها حتى الآن شيئا .

وماذا نعرف من الحرب - كموظفين مثلا - إلا أنها علاوة غلاء وعلاوة حرب فوق ما نحصل عليه من أجور ؟

وماذا نعرف من الحرب كمزارعين إلا أن نبيع محصولاتنا بأعلى الأسعار ، وإلا أن نتطلب الذهب من هذه الأمم التي تنفق دم شبانها قبل أن تنفق الذهب ؟

وماذا نعرف من الحرب - وهي ضيق وتضحية وإرهاق - إلا أمثال ما كشف لنا عنه هذا الإحصاء الأخير الذي أجرته وزارة التكوين لتوزع على قاعدته بطاقات البترول فخرجنا منه وعدد سكان بلادنا هو ضعف عدد السكان؟ ذلك أننا لا نعرف البذل لا في السلم ولا في الحرب، بل تسيطر علينا فكرة الأخذ أيما يصح الأخذ أو لا يصح. أما الإعطاء، أما التضحية، فأفكار أحسبها قليلا ما تدخل في حسابنا على العموم وأنا شديد الأسف لهذا الحسبان.

قيود الحرب يجب أن تتحد في ذهن كل مواطن، ويجب أن نروض أنفسنا على قبولها إن كان لنا أن ندخل هذه الحرب كما يدخلها الكرماء، وأن نعيش بعدها أو نموت فيها كما ينبغي لمن يقسطون في كرامتهم أن يعيشوا أو يموتوا. فما هي هذه القيود؟ إن الحرب تقتضيها في هذا الحساب العاجل ثلاثة أنواع من القيود: قيود سياسية، وقيود اقتصادية، وقيود أخلاقية.

أما القيود السياسية فعقدتها أن نتوجه بكل قوانا إلى غاية واحدة هي سلامة الوطن، وأن نبذل له ولهذا الغاية من أموالنا وأرواحنا ودمائنا ما يجب أن يبذل للوطن إذا حدد كيانه من مال ودم وروح، وأن نجعل سلامته من سلامتنا بل أن نجعل هذه السلامة سببا لوجودنا، فما استحق أن يوجد من يفرط في سلامة وطنه. ينبغي أن نستعين بالمال، بل بالجسد والروح، عندما تفرغ طبول الحرب تدعونا أن ندفع عن بلدنا، وأن نهرع غير عزيزة علينا الحياة للذود عن كل ما هو كريم وجميل في أعمار الرجال.

ينبغي أن نبذل للوطن من نفوسنا بأن تكبح جماح الشائعات التي تضر بأمنه وسلامته، وأن نجربها عن الذبوع بأن نقفل أفواهنا، وبأن نحذر دعاة التفهق والهزيمة بما يكف نشاطهم الخبيث. ينبغي أن نطعم ما يجدره الحكم العسكري من أوامر، وأن نكره لأنفسنا أن نفعل ما ينهى عنه. ينبغي أن نذكر أن الوطن فوق كل اعتبار، فلا شهوات نفرينا، ولا عروض تستهويننا ولا نزوات تستخفنا، ولا أهواء تغلب ألبابنا.

أما القيود الاقتصادية فكثيرة ولكنها لا تستعص على الحصر، فيجب أن يفكر كل منا في زيادة إنتاجه قدر ما تتسع طاقته للإنتاج، وذلك في كل ميدان، ومهما يكن العمل الذي يقوم به الفرد. ويجب أن يقلل كل منا استهلاكه فلا يزيد في حده الأعلى عما هو ضروري ولازم، وأن نستوثق من حكم عقولنا في شهوات نفوسنا، وأن نعصدق السلطات فلا نكذب ولا نموه ولا نزور ولا نزيغ. ويجب أن يمدد من يحترفون الاتجار منا إلى رعاية حق الوطن فيما يبيعون، فلا يستغلوا حاجة مواطنهم، ولا يستخفهم الكسب الميّن إلى الاستفادة من حوائج الناس. ويجب أن نتحصن جميعا بمخلة الادخار ندفع بها مفاجآت المستقبل - والحرب كلها مفاجآت - ونستعين بما نقتصد على ما قد يعقب الحرب من سين عجاف.

وأرجو أن نعلم جميعا أنه إذا كانت الحرب تحمل الفرد تضحيات جمة، فإنها تحمل الدولة تضحيات أكبر وخاصة من الناحية المالية . فإن الحرب رجال ، وهي أيضا معدات ، والمعدات تعنى المال . والدولة التي تهب للدفاع عن بلادها لا تملك أن تقف لتفكر طويلا في وسائل الحصول على المال تفكيرها هادئا كما كانت تفعل في وقت السلم ، فهي تريد المال في التو، وهي لهذا تطلبه في إلى الأفراد وعلى الأفراد أن يقدموه إليها غير متذمرين ولا متعلمين . هؤلاء عليهم ألا يرضوا عليها بما هي في حاجة إليه ، فهم في الحقيقة ، وعلى الأقل وقت الحرب ، الذين يحملون عبء الحصول على هذا المال ، وربما أشركوا أولادهم معهم في حل هذا العبء . هذا أيضا واجب من واجبات الحرب يقع ثقله على طاق الأفراد ، إذ هو يتصل بقيود ضغطت الحريات وبالتضييق على النفس للحصول على فائض تمنحه للدولة . وليست هذه التضحية المالية أمرا هينا ، لأنها قد تتكرر وقد تتضاعف . وهذه إنجلترا ، وهي ما نعلم من الثراء حكومة وشعبا — يرتفع فيها صوت حجة في الاقتصاد كالعامة كيفس لبيب بالناس حاكمين ومحكومين أن أعدوا أنفسهم منذ الآن لا للتضحية بأبنائكم فقط ، ولكن للتضحية أيضا بمن العيش الذي نأكلون ، وكلما تقدم الزمن بالحرب فأعدوا لما تضحيات أكبر من الناحية الاقتصادية إلى جانب النواحي الأخرى . ذلك أن الحرب حرمان بل الحرب جوع وصوم .

وأرجو أيضا أن يأخذ القراء عنى حقيقة وددت لو كانت بارزة متميزة في أذهاننا جميعا . تلك أننا في مصر نعيش لأنفسنا لا لأمتنا . فالفردية — ولا أحب أن يفهم أحد أنها خصلة مميّزة في أوقات السلم — عريقة الجذور في تفكيرنا وفي سلوكنا ، وكل منا تعنيه مصلحته هو لا مصلحة الآخرين . فالفرد وما يهمه عن كسب بداية ، وبعد ذلك الطوفان . وربما كان هذا اللون من التفكير — بغير إسراف فيه — جيدا أن يؤخذ به وأن يوعظ به في الأوقات العادية . أما في أوقات الحرب ، فلا الفرد ، ولا مصلحته ، وإنما هذا البناء السامق الذي تتألف منه الدولة وهذه الذرات الكريمة التي تتألف منها أرض الوطن ، هي التي يجب إن يكون لها السبق عندنا في التفكير وفي التدبير . أجل ! إن الفرد موجود في السلم منعدم في الحرب ، وإن مصلحته تطفو في الوقت العادي وترسب إلى القاع عند ما يجزب الأمر ويدعو داعي الوطن . وهذه هي قيود الحرب الأخلاقية : أن يعمل كل منا من أجل بلاده وسلامتها واستقلالها قبل أن يفكر في نفسه ، أن يفكر في المجموع لا في وحدة من وحدات هذا المجموع ، فنحن لا ينبغي أن يكون لنا وجود مستقل بأفرادنا بل يجب أن يكون وجودنا بوطننا ، وبأمتنا ، وبمجموعنا . ذلك هو تفكير الحرب أرجو أن يتدبره المصريون .